العرب
السبت 2020/03/14
السنة 42 العدد 11646

كاتب يدفع المتلقي إلى تهديد سلطة الراوي

باحث جزائري ينفي عن روايات عبدالرحمن منيف صفتها التاريخية

على غرار كبار الأدباء العرب من أمثال نجيب محفوظ وخيري شلبي وغيرهما، لعب الروائي السعودي الراحل عبدالرحمن منيف دورا بارزا في تخليص الرواية العربية من التأثر المفرط بأنماط الرواية الغربية، ومحاولة توطينها في بيئة عربية لها خصوصياتها اللغوية والتاريخية والمكانية والاجتماعية، لذا تبقى أعمال منيف خزانا خصبا لاستلهام أفكار جديدة في كل مرة.

الخيال لغة تحجب أشياء وتكشف أخرى (لوحة للفنانة غلناز فتحي)

أحمد رجب

القاهرة – بعدما أتم العرب فتح العراق أطلقوا عليه اسم "أرض السواد"، وسواء كان سبب التسمية يرجع لخصوبة أرض العراق، فوصفها القادمون من الصحراء بالسواد، أو لسبب ثان يرجع لكون الفاتحين دخلوا العراق قبيل الغروب، وكانت الأرض تبدو سوداء لكثافة ظلال النخيل المنعكسة على الأرض.

كادت هذه التسمية تنسى وتبقى حبيسة الكتب القديمة حتى بعثها الروائي السعودي الراحل عبدالرحمن منيف، وجعل منها عنوانا لروايته الأخيرة ذات الأجزاء الثلاثة، وفيها عاد منيف إلى بغداد العثمانية، تحديدا في فترة حكم الوالي العثماني داود باشا للعراق خلال القرن التاسع عشر.

> رغم محاولات الإيهام المتكررة بالتأريخ، إلا أن الباحث ينفي عن ثلاثية منيف صفة التأريخ أو سرد الواقع

ومنذ صدورها قبيل نهاية القرن العشرين ورواية "أرض السواد" تحظى بالاهتمام النقدي، وأحدث هذه الدراسات كتاب جديد بعنوان "آليات اشتغال السرد في الخطاب الروائي الحداثي- ثلاثية أرض السواد لعبدالرحمن منيف أنموذجا" للباحث الجزائري عبدالغني بن الشيخ، وهي دراسة نقدية أكاديمية حصل بها الباحث على درجة الدكتوراه، وكان قد تناول في أطروحته للماجستير "بنية الخطاب الروائي عند جمال الغيطاني".

مفارقة الواقع

يذهب الباحث في مقدمة كتابه، الصادر عن دار خيال للنشر والترجمة – الجزائر، إلى أن منيف كان يطمح جادا إلى تأصيل الرواية العربية، وفق رؤية منفتحة، تنبني أساسا على فكرة المزاوجة بين تقنيات الرواية الغربية الحديثة وأساليب الحكي التراثي، في محاولة إلى تأصيل الرواية العربية وفق رؤية حداثية، تتجاوز النص التراثي، بإعادة إنتاجه وتحويله، بما يجعله تخييلا روائيا ذا خصوصيات عربية.

محاولات منيف أفضت بالرواية العربية المعاصرة إلى التحرر بشكل لافت من التبعية الأدبية والثقافية للآخر، التي فرضتها عليها الرواية الغربية، منذ نشأتها وعلى مر مراحل تطورها، باعتبارها النموذج الذي ظل يحتذى به من قبل الروائيين العرب، ويرى الباحث أن منيف يرتكز على ثقافة تراثية واسعة، جعلها تتعايش مع حداثة النص الروائي، الذي تتداخل فيه الخطابات وتتنوع فيه الأساليب وطرائق السرد، و هو ميزة طبعت أعمال أبرز الروائيين العالميين المجددين.

يقول الباحث إن "أرض السواد" هي نص روائي تخييلي، تتفاعل فيه شخصيات ذات هوية تخييلية، وكذلك الأحداث فيها تخييلية مفارقة لما يمكن أن يكون قد حدث بالفعل في الواقع، نظرا إلى ما قد توهم به الرواية من خلال الإحالات والإشارات إلى واقع بعينه، وأمكنة محددة، إلا أن كل ذلك لا يعدو أن يكون سوى تخييل سردي مبرمج له، وفق استراتيجية روائية معينة إذ "قد يكون هذا الذي يرويه الكاتب حقيقيا على مستوى علاقته بمرجعيته، لكن يبقى أن ننظر إلى المروي نفسه على مستوى نصيته، أي على مستواه كمقروء". وهو ما كشفت عنه الدراسة، ابتداء من وقوفها على عتبة العنوان، فصفة السواد جاءت من طبيعة الأرض، فإن أرض السواد مؤهلة لأن تكون مكانا للاستيطان والاستثمار، وربما تحولت إلى أرض للتصارع وهدفا للغزاة والطامعين.

ويفتح العنوان أفقا للتوقع لدى القارئ تتعدد مستوياته قبل الشروع في قراءة الرواية ذاتها، فعنصرا الإيحاء والتكثيف متوفران، كونه مستمدا من التراث والتاريخ، هذا من جهة، وكونه من جهة أخرى قد أختير ليكون عنوانا لرواية طابعها تخييلي، لا لوثيقة تاريخية طابعها إخباري، حتى وإن استعارت الرواية محمول التاريخ لتشكل منه عالمها الخاص.

يشير الباحث إلى الإحالات المرجعية في النص الروائي على وقائع وأحداث لها صلة بالتاريخ في حقبة زمنية بعينها، على خلاف ما قد نجده في روايات أخرى لعبدالرحمن منيف والتي لجأ في معظمها إلى التمويه وعدم التصريح بأسماء الأمكنة والأشخاص التي لها علاقة بالواقع، حتى وإن كان تأويلها على مستوى القراءة ممكنا، إلا أننا نجده في هذه الرواية يأخذ منحى مغايرا، فقد لجأ إلى ذكر أسماء مدن وعواصم لها موضعها الجغرافي الفعلي، كما تعدى ذلك إلى توظيف أسماء أعلام وألقاب شخصيات، تتطابق مع تسميات أشخاص وجدوا بالفعل في الواقع وفي فترة تاريخية محددة.

وما يكثف الإيهام والالتباس هو أسلوب خطاب التقرير، الذي اتكأ الروائي عليه في مقاطع سردية عدة، تضمنت معلومات وأخبار توهم القارئ بأن الرواية تؤرخ لأحداث وقعت، أو شبيهة إلى حد التطابق مع ما حدث بالفعل. حيث يوهمنا الراوي منذ البداية بأنها من التاريخ فعلا "بدأ الغزو مرة أخرى كما يروي التاريخ، وإذا كانت لكل حرب أسبابها وذرائعها فقد اعتبر الملا عثمان الذريعة، فهذا الرجل الذي قتلت زوجته وأولاده أمام عينيه، في أثناء غزو كربلاء قرر أن ينتقم".

سمة التخييل

على الرغم من محاولات الإيهام المتكررة بالتأريخ، إلا أن الباحث ينفي عن الثلاثية صفة التأريخ أو سرد الواقع اعتمادا على أن درجة الموضوعية التاريخية تتراجع في الرواية، حتى وإن صنفت تاريخية، فهي تفارق بالأساس منطق التوثيق، الذي يقوم أساسا على الموضوعية وترتيب الأحداث وتحديد التواريخ، وغير ذلك من الشروط التي يستلزمها التوثيق التاريخي، وهذا ليس عيبا فيها بل كان ضروريا حتى لا تفقد سمة التخييل، الذي تتمثل خصوصيته في أنه ينبني أساسا على تجاوز الواقع، دون الانفصال التام عنه، وكذلك على أساس النزوح إلى التجريب، بتجاوز ما هو مألوف من طرائق سردية في الرواية العربية التقليدية، وبخاصة ما يسمى بالرواية التاريخية.

و"أرض السواد" تفارق شكل الرواية التاريخية من نواح عدة، منها تداخل الواقعي بغير الواقعي في خطابها، كما لا يخضع ترتيب الأحداث فيها لمنطق زمني سببي صارم فضلا عن تداخل الخطابات المتناصة وتعدد الرواة، ووجود فجوات تركت شاغرة لإشراك المتلقي في ملئها، بما في ذلك النهاية التي جاءت مفتوحة.

إضافة إلى ذلك نجد في الرواية تنويعا في الأساليب التي تم بواسطتها تقديم الأحداث، بتكثيف الأساليب المجازية تارة واللجوء إلى التقرير والمباشرة تارة أخرى، وتوظيف الموروث الأدبي، بجعله يتماشى مع خطاب الرواية المعاصرة.

أما على مستوى اشتغال الزمن يؤكد الباحث أن زمن الخطاب جاء مفارقا في نظامه لزمن القصة، نتيجة اعتماد الروائي على تقنيات تكسير الزمن وخلخلة نظامه، بالعودة إلى الخلف والقفز إلى الأمام في بعض الأحيان، وأما زمن القصة فقد بدا قياسه الدقيق شبه مستحيل، لغياب المؤشرات الزمنية الكافية.

وأخيرا فقد تميزت هذه الدراسة باهتمامها بالمتلقي، باعتباره المعني الأول بتلقي النص، فهو يشارك في ملء الفجوات وإنتاج النص، ويتبادل السلطة مع الراوي بل ويهدد سلطته، مما جعل الراوي في نص الرواية يقلص من مناوراته السلطوية، مانحا المتلقي فرصة المشاركة والمناورة ولو بشكل افتراضي.

الوباء ضيفا ثقيلا على المؤرخين

حسن الوزاني
كاتب مغربي

"كان الموت موتَ بغتة وفجأة، حيث يرى الإنسان أخاه يمشي صحيحا ويسقط ميتا... وبنفس ما ينقاس به الإنسان فيتغير حاله وتتشوه خلقته وتقع اللكنة في لسانه فيلجلج مقاله.. حتى كان البدوي يأتي يتسوق للحاضرة فلا يرجع إلى أهله إلا ميتا محمولا على الدواب. وخدمة الزرع في الفدادين إن كانوا جماعة لا يرجع لأهله سالما منهم إلا القليل، حتى حكي لنا أن ابن مولانا أمير المؤمنين بعث يوما لحصاد الزرع نفرا كبيرا، مات منه أربعون رجلا في يوم واحد، بل في ساعة".

جزء كبير من هذا الوصف يتقاطع مع اللحظة المأساوية التي يعيشها الكون في الوقت الراهن. وإن كان النص، الذي خطه المؤرخ المغربي العَرْبي بن عبدالقادر المشرفي في مؤلفه "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين"، يهم كارثة أخرى همت، خلال منتصف القرن التاسع عشر، العديد من الدول، من بينها المغرب وتونس وفرنسا والولايات المتحدة وأميركا الجنوبية وغيرها.

وإذا كانت الكوارث الإنسانية تختلف من حيث سياقاتها وأسبابها وحجمها، فإن ما يجمعها هو حضور شبح الموت الجماعي الذي لا يميّز بين أحد. إذ نجد أن عددا كبيرا من علماء المغرب والعالم العربي كانوا ضمن قوائم الذين توفوا بسبب الأوبئة، ولعل من بينهم، على سبيل المثال، عبدالوهاب السبكي، صاحب كتاب "جزء في الطاعون"، وشهاب الدين أحمد التلمساني مؤلف كتاب "الطب في دفع الطاعون"، والرحالة المغربي الشهير أبوسالم العياشي، المعروف برحلته "الرحلة العياشية إلى الديار النورانية"، والسفير محمد بن عبدالوهاب بن عثمان، الذي اشتهر بنص رحلته "الإكْسِير في فكَاك الأسير"، والسفير إدريسَ الوَزير العمراوي، صاحب رحلة "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز".

وبشكل مفارق لحجم الدمار الذي كانت تخلفه الأوبئة بمختلف أشكالها المميتة، لا يكاد مجمل الإنتاج العربي الذي يتناولها والصادر منذ بداية الطباعة إلى اللحظة الحالية، يتجاوز الخمسين عنوانا، بالاستناد إلى قواعد المعطيات المتوفرة. فيما تنحصر مجمل العناوين التي تتناول الموضوع، والتي يغطيها "معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين" لعبدالرحمن ابن زيدان والذي يحصر الإنتاج المغربي خلال فترة تمتد على سبعة قرون، في الستة مؤلفات فقط. وذلك في الوقت الذي يوفر موقع غاليكا التابع للمكتبة الوطنية الفرنسية ما يقارب الستين ألفا من أندر الكتب والوثائق الفرنسية المرقمنة، خارج الإصدارات الجديدة التي تتناول الموضوع.

أما أغلب ما كتب في الموضوع، على مستوى التراث التاريخي، فيتسم بسيادة تصوراته الدينية والفقهية، التي تفتح الباب أمام التمثلات الغيبية، والتي تحول بالتالي دون الوقوف عند الظاهرة في حد ذاتها أو تؤرخ لها. وهو ما يعكسه النقاش الطويل الذي خص قضايا ثلاث على الأقل، كان قد وقف عندها مؤلَّف هام وهو "تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب"، الذي كان قد أصدره المؤرخ المغربي محمد الأمين البزاز، قبل حوالي عشرين سنة.

أما القضية الأولى فتهم مفهوم الأوبئة، التي كانت تعتبرها كثير من الكتابات عقابا سماويا موجها إلى الكفار، مستندة في ذلك إلى الحديث النبوي "أتاني جبريل عليه السلام بالحمى والطاعون فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام".

فيما تخص القضية الثانية جواز مغادرة الأرض التي يصلها الوباء، حيث فتح السؤال الباب أمام جدل استمر طويلا، تقاسمته الكتابات التي تدعو إلى الوقاية والفتاوى التي تعتبر الوباء قدرا لا يجب الفرار منه. وهو الجدل الذي تعكسه كثرة الكتابات في الموضوع، ومنها رسالة "سلك الدرر في ذكر القضاء والقدر" للصوفي أحمد ابن عجيبة، والتي يقر فيها أنه "من الواجب على العبد أن يسكن تحت مجاري الأقدار وينظر ما يفعله الواحد القهار". وذلك بالإضافة إلى رسالة "هل يجوز لمن حل الطاعون ببلدهم أن يغادروه" لأحمد السجلماسي اللمطي، و"رسالة في أحكام الطاعون وفيمن حل ببلادهم هل يسوغ لهم الخروج أم لا" لمحمد الرهوني، وغيرها من الرسائل التي تتقاسم نفس العناوين ونفس التصورات الجاهزة، التي تغلق الباب أمام أي اجتهاد.

الخيال الأوروبي عالج الأوبئة في شكل مختلف

أما القضية الثالثة فتخص تحريم الحجر الصحي الذي كان قد تعرف عليه المغاربة من خلال ما كتبه عدد من السفراء، ومنهم ابن عثمان في رحلته المعروفة "الإكْسِير في فكَاك الأسير" التي همت إسْبَانيا، وذلك قبل أن يتم اعتماد الحجر على مستوى البلد.

ويشير في هذا الإطار الباحث محمد الأمين البزاز إلى موقف المؤرخ المغربي الناصري، صاحب كتاب "الاستقصا" الشهير، حيث يقر الناصري بأن "الكرنتينة"، وهو الاسم الذي كان يعرف به الحجر حينها، "تشتمل على مفاسد كل منها محقق، تعين القول بحرمتها".

والغالب أن عجز الكتابات العربية عن تمثل الأوبئة في بعدها التاريخي، بعيدا عن الذهاب بها إلى منطقة الفقه وتسييجها بالسؤال الديني، يرتبط بطبيعة تمثل الكتابة التاريخية وأسئلتها الخاصة.

> عجز الكتابات العربية عن تمثل الأوبئة في بعدها التاريخي يرتبط بطبيعة تمثل الكتابة التاريخية وأسئلتها الخاصة

ويختزل المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال هذا الوضع، بشكل دقيق، في سياق حديثه عن اهتمام العالم المغربي بالتاريخ : "ومما يزيد العالِم التشبث بهذا الرأي هو أنه لم ير، مدة طلبه للعلم، شيخا من شيوخه حثّه على دراسة ماضي المغرب، سواء السياسي منه أو الأدبي، فكيف والحالة هذه، ألا يولي ظهره لمادة لم تُخصَّص لها ولو ساعة واحدة من تلك الساعات العديدة المخصصة للنحو أو للفقه مثلا؟".

والنتيجة، أن العالم العربي يكتفي الآن باستهلاك الآلاف من القصاصات الصحافية التي ترصد، خلال كل دقيقة، عدد الوفيات والمصابين الذي يخلفه وباء كورونا، مفضلا موقع المتفرج، وعاجزا عن الإسهام العلمي في الحد من الكارثة. وذلك بعد أن فوّت مؤرخوه تدوين مآسي الأوبئة بعيدا عن فقه الفتاوى!